الخطاب النقديّ العراقيّ - الأصول والمراجعات -

أ.م.د. مها فاروق عبد القادر الهنداويّ
جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية
dr.mahaalhindawy@yahoo.com

التقديم: ٢٤١ في ٢٠١٧/٦/١٣
القبول: ٦٧٧ في ٢٠١٧/١٢/٢٨

الملخص:

إذا كان النقد فعالية إبداعية تحمل خصائص متمايزة من خصائص الكتابة فهل استطاع أن يسهم في رفد دائرة النص الإبداعي وتوسيعها ؟! وهل تبنى مهام أخرى فضلاً عن مهماته في الفحص والتحليل وإطلاق الأحكام حاول من خلالها انتشال الأدب من أفخاخ انحطاطه ومآزق اشكالياته ليعيد إليه قدرته على أداء وظيفته الإنسانية السامية ؟! هذه وغيرها أسئلة عندما أحلناها إلى دائرة المشهد النقدي الأدبي في العراق وخطابه المعرفي انبثقت هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية : الخطاب – النقدي – العراقي.

Iraqi critical discourse - Assets and Reviews -

Assist Prof. Dr. Maha Farouk Abdelkader Hindawi
University of Baghdad / College of Education-Ibn Rushd for Humanities
dr.mahaalhindawy@yahoo.com

Abstract:

Does creative criticism contribute to the extension of the circle of creative texts with the different characteristics it has?! Does it carry other tasks in addition to its duties in examination, analysis and judgment by which it tries to extricate literature from the traps of its degeneration and the dilemmas of its problems to restore its ability to perform its high human function?! This paper tries to answer these questions within the scope of literary criticism in Iraq.

Keywords: discourse – critical - Iraqi

التمهيد:

إذا كان الأدب نتاج قوة التخييل في الإنسان ، فأنه بذلك يحلينا على دائرة الحس والشعور والفرادة والإبداع. وإذا كان النقد نتاج قوة التحليل فينا فإنه بذلك يحيلنا إلى دائرة الفكر والفحص والحكم.. بعد هذا كله لنا أن نتساءل: كيف يمكن لنتاج الذات (الأدب) ونتاج الـ (نحن) النقد أن يتداخلا في منظومة واحدة نطلق عليها (النقد الأدبي)؟ بكلام آخر : ما شكل العلاقة بين منظومتي الأدب والنقد ؟ وهل هي علاقة استيعاب وتوازن بين قوى ابداعية وأخرى فكرية ، أم علاقة احتواء وخضوع إحداهما للأخرى ؟! هنا يبرز سؤال النقد الأصعب – كيف يمكن أن نخلق في آنٍ واحدٍ نصاً أدبياً وآخر نقدياً ، يحمل كلا منهما أسباب حضوره في المشهد الثقافي وأدوات ديمومته فيه ، ليكون كلٌ منهما خطاباً معرفياً موازياً للخطاب الثقافي والفكري للحاضنة المجتمعية التي ينبثق عنها ؟! وإذا كان النقد فعالية إبداعية تحمل خصائص متمايزة من خصائص الكتابة ، فهل استطاع أن يسهم في رفد دائرة النص الإبداعي وتوسيعها ؟! وهل تبنى مهام أخرى فضلاً عن مهماته في الفحص والتحليل وإطلاق الأحكام حاول من خلالها انتشال الأدب من افخاخ انحطاطه ومآزق اشكالياته ليعيد إليه قدرته على أداء وظيفته الإنسانية السامية ؟! هذه وغيرها أسئلة عندما أحلناها إلى دائرة المشهد النقدي الأدبي في العراق وخطابه المعرفي انبثقت هذه الورقة البحثية ، فكانت تسير في مسربين أساسيين ، الأول: الأصول الأولى للخطاب النقدي العراقي ومراحل صيرورته التي تمثلت بعتبات ثلاث التأسيس والتحول والمثال عبر جهدين أساسيين منتجين للخطاب النقدي العراقي الجهد الأكاديمي والجهد الثقافي (الصحافي) من خلال توظيف مناهج نقدية تأثرية (انطباعية) ، ومنهجية(قواعدية) سياقية ونصية...

الثاني: قراءات مراجعة لهذه الجهود النقدية للوقوف على مدى نجاحها في تحديد مسارٍ نقديٍّ عراقيٍّ خالص منهجاً وإجراءً وتحليلاً ، في محاولة منها لتحديد ملامح النص الإبداعي العراقي وتوجيه مساراته المستقبلية. فهل من هوية مائزة للخطاب النقدي في العراق ، أم أنه ما زال يجول في وهاد البحث عن بصمة فرادة؟! هذا ما حاولت هذه الورقة الإجابة عنه.

الأصول الأولى للخطاب النقدي العراقي:

ظهرت معالم الاتجاه الأدبي الحديث في العراق بعد صدور الدستور العثماني عام ١٩٠٨ ، فقد حدثت ثورة صحفية تمثلت بقيام عدد من الأدباء بإصدار صحفٍ متعددة ، بثوا من خلالها ما جادت به قرائحهم ، وما توصلت إليه نظراتهم الفاحصة الناقدة لمجمل ما كان ينتج من خطاب أدبي إبداعي ، مقدمين بذلك نصاً نقدياً موازياً للنص الإبداعي ، متأثرين في ذلك بما كان يرد إليهم من دوريات عربية أخرى كانت تصدر في بلاد العرب في الشام ومصر ، مثل الجوائب المصرية ، والجنان والمقتطف والهلال والمشرق ، وغيرها. هذا فضلاً عما قدمته لهم الطباعة من

مجالٍ واسع لنشر مؤلفات نقدية متخصصة ، دارت مجمل إجراءاتها النقدية حول النص الأدبي الإبداعي لكبار أدباء وشعراء ذلك العصر. متأثرين في آرائهم تلك بالخطوط العامة لمسارات النقد العربي في القديم وما تُرجم إلى العربية من آراء مدارس النقد ومذاهب الأدب في العالم المحيط.

وإذا عدَّ المؤرخون (الزوراء) (١٨٦٩م) أول صحيفة عراقية، فإنَّ مجلة (لغة العرب) ١٩١١م للأب انستاس ماري الكرملي أول مجلة أسبوعية اهتمت بالأدباء ونتاجاتهم مضمنة صفحاتها نتاجات رفائيل ، بطي والزهاوي ، والرصافي ، وعلي الشرقي ، ومصطفى جواد ، وغيرهم ، فضلاً عن الأدباء العرب ، وعما كان يصدر في باقي مدن العراق من صحف عنيت بالشأن الأدبي إلى جانب السياسي في الموصل والبصرة والنجف . ولا ننسى هنا فضل المجالس الأدبية في بغداد ، وسائر أرجاء العراق على الحركة النقدية[١].

في هذا الوقت تجاذب تياران حركة النقد الأدبي في العراق:-

١- تيار التقليد ممثلاً بآراء أبي الثناء الآلوسي ، وحيدر الحلي ، والزهاوي ، وغيرهم وقد كان ذلك في العشرين سنة الأولى من القرن العشرين . فكانت أحكامهم عائمة ، يغلب عليها الذوق والانطباع الشخصيّ من جهة ، والتطرف والتعصب من جهة أخرى.

٢- تيار التحديث:- وهنا علينا أن نذكر أنّ مهمة النهوض بالأدب العراقي الحديث ، ومن ثم خطابه النقديّ قامت على أكتاف جملة من الأدباء الملتزمين بروح الأدب ، والمؤمنين بأثره في المجتمع أمثال: الزهاوي ، والرصافي ، والكرملي ، وعبد المسيح زير ، ومحمود احمد السيد ، أنور شاؤول ، ومحمد مهدي البصير ، وغيرهم. هؤلاء بفعل تطور ونضج تجاربهم الإبداعية والنقدية تنبهوا على أن النقد ليس هو الانتقاد ، وليس هو التقريظ ، بل هو فن وإبداع شأنه في ذلك شأن الأدب ، وهو من جهة أخرى ميزان عادل يزن الأفكار وصورها النصية ليعطيها حقها في السلب والإيجاب. وعنوا أيضاً بتحديد شروط الشخصية الناقدة ، مثل صراحة القول والإلمام بفكرة النص والتنبه لسقطاته وهناته... وقد وجهوا نقدهم في الغالب إلى مسائل اللغة والعروض وفنية الصور . وهنا لا بد من ذكر الجهد النقدي النسوي في هذا الباب ، فلا ننسى مقال ناجية فاضل (النقد الأدبي الحديث) الذي قدمت فيه رأيها بالنقد الإبداعي بعد أن تجاوزت النقد المعياري ، و(زكية إسماعيل حقي) ومقالها(الخيال في الأدب).. ولم يغفل نقاد هذه المرحلة من عمر النقد العراقي توظيف مناهج النقد القديمة والوافدة في قراءاتهم للنص الإبداعي فوظفوا المنهج الوصفي (منهج التفسير والوصف) ومنهج الموازنة بين النصوص والشعراء ، والمنهج التاريخي (المكان والزمان) وكانوا متأثرين فيه بآراء الناقدين الفرنسيين تين وسانت بيف . ولعل أهم ما آمنوا به في نقدهم قضية (الشعر وروح العصر) وضرورة التزام الشاعر بقضايا المجتمع والأمة ، لذلك غلب على أدبهم (المنهج الواقعي) . لكن نقدهم لم يسلم من قسوة الخطاب وحدته وربما تطرفه.[٢].

وإذا كان كل ما تقدم يمثل الخطاب النقدي العراقي في مرحلة التأسيس بصيغته التأثيرية (الانطباعية) فإن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية شكلت برأي د. عناد غزوان مرحلة تحول نحو المنهجية[٣]. فقد غدت قراءة النص الأدبي أكثر وضوحاً ، وأعمق بعداً بسبب تطور ثقافة الأديب والناقد على حدٍّ سواء. وقد أعطى الشكل الشعري الجديد المتمثل ب(الشعر الحر) في القصيدة العربية دفعة جديدة للنقد الأدبي ،فقد بث فيه روح البحث عن الجديد في الفن والأدب ، هذا فضلاً عما أحدثته الرواية وقراءاتها النقدية من تأثير في هذا الخطاب ، وقد حدد الجهد النقدي الأكاديمي في هذا الوقت ملامح الخطاب النقدي العراقي وأبعاده ، وهو يتجه نحو المنهجية بعيداً عن التأثرية والانطباعية...وكان هذا إيذاناً ببلوغ هذا الخطاب مرحلة (المثال النقدي) كما يرى د. عناد غزوان في السبعينات والثمانينات عندما اتجه الناقد إلى المعيار الفني في نقد الشعر والى المنهجية الواضحة بتأثير الرؤى النقدية الوافدة ومسارات النقد التي أثرت فيها إلى حدٍّ ما الصحافة الأدبية والمؤتمرات الأدبية وجلساتها النقدية ، هذا فضلاً عن تمثل الناقد العراقي لمضمون ومفهوم (المصطلح النقدي) ، وميله الواضح نحو التطبيق والتحليل لا التفسير أو مجرد التنظير[٤].

قراءات المراجعة:

إذا كان النقد ممارسة معرفية أولاً وفنية وإبداعية ثانيا فإنه سيكون بهذا التوصيف أمام جملة من الأسئلة ، عليه أن يجيب عنها كيف يمكن له أن يدخل فضاء النص ، ومن أي بواباته يدخل ، وأي أدواته الإجرائية يستعمل ، وهو يشرح هذا النص ،وكيف يمكن له أن يلملم رؤاه وشظايا قراءاته ليشكل منها هيكل نصه الإبداعي الموازي للنص المقروء ، وما جدوى كل هذا أخيراً ، وما مدى فاعليته في رفد دائرة (النص) وتوسيعها ، واستشراف آفاقها المستقبلية على مستوى الدلالة والبنية وحتى نمطية هذا النوع الأدبي أو ذاك؟![٥].

إن استقراءاً أولياً لما حققه الخطاب النقدي العربي يشخص ثلاثة انجازات أساسية مترابطة هي (تقديم المنهجية في الدراسة والبحث كشرط لازم لأي عمل نقدي رصين) و(بروز النصية كشرط ضروري لأي عملية نقدية إجرائية بغض النظر عن المنهج المعتمد من قبلها) و(بروز اللسانيات كمرتكز أساسي في جملة من الأعمال النقدية الطليعية كنتيجة للالتحام الجدلي بين المنهجية والنصية)[٦].

ولما كان النص الإبداعي نتيجة منطقية للتلاقح الخصب بين التجربة الشعورية الفردية والتجربة الجمالية لهذه الذات في المكان والزمان والرؤيا لم يعد ممكناً ، بعد ذلك قراءة هذا النص الإبداعي من دون تمثل السياق الثقافي الذي تولد هذا النص في إطاره ، ومحاولة استكناه مساحة فضاء تلقي هذا النص وحدوده وملامحه من القارئ المفترض[٧]. بهذا وبهذا فقط تخرج الفعالية النقدية من

إطار المغامرة لتدخل حقل التجربة الحياتية والفكرية والمعرفية، ومن ثم الأدبية فـ(في ظل الثورة المنهجية النقدية الحديثة في العالم المعاصر لم يعد النقد فعالية ذوقية استمتاعية مجردة لا تقوم على رؤية واضحة ومنهج فاعل ،بل تحول إلى نوع من القراءة العميقة القائمة في تشكيلها النظري الجوهري على أسس معرفية وفلسفية تعمق الرؤية ، وتضاعف القيمة ، وتحقق المنهج ، وتؤدي إلى نتائج تمتد أحياناً حتى خارج العملية الأدبية بمعناها الضيق الذي يتحدد عادة بين حدود الكاتب والقارئ ، لتشكل الحياة بأسرها بوصفها فعالية يحتل الأدب بمعناه النظري العميق والحيوي والفاعل جزءاً أصيلاً من تشكيلها واستمراريتها وتطوير رؤاها ، على النحو الذي تكون فيه ممارسة ثقافية لها تأثيرها البالغ على كل الممارسات الحيوية الأخرى في الحياة والوجود)[٨].

لو توقفنا عند هذا الحد في توصيف المشهد النقدي وخطابه ، وعرّضنا هذه الأطروحات والمفاهيم للفحص والاختبار عبر عينة الخطاب النقدي في العراق الى ماذا سنتوصل وعند أي الحدود سنقف؟!.

يبدو أن هذه الأسئلة ومثيلاتها قد طرحت واجيب عليها من لدن اعمدة وركائز المشهد النقدي في العراق ، مثل فاضل ثامر ، وحاتم الصكر ، وعبد الجبار عباس ، و د. مالك المطلبي وآخرين في محاولة منهم لتحديد ملامح وهوية الخطاب النقدي في العراق باتجاه التأصيل لمدرسة نقدية عراقية في الفكر والأدب ، فيرى الناقد فاضل ثامر اعتماد الحركة النقدية في الستينيات على جهد عدد من النقاد الشباب خارج الإطار الأكاديمي وقد نتج عنها حركة نقدية جديدة اختلطت فيها الكثير من المقاربات النقدية كالسوسيولوجية والانطباعية والتاريخية مع محاولات للاقتراب من مستويات التحليل الجمالي ، لكنها في العموم ممارسات حماسية أكثر منها إجرائية. أما النقلة الحقيقية في الحركة النقدية العراقية فقد حصلت في الثمانينات مقترنة بظهور اتجاهات سيولوجية والسنية في النقد العالمي والعربي،فبرزت اتجاهات النقد النصي بطابعها الأسلوبي والتفكيكي واتجاهات الخطاب.[٩]. في حين يرى الناقد عبد الجبار عباس أنَّ الجهد الأسلوبي والقراءات السوسيونصية والسوسيوشعرية قامت بجهود النقد الأكاديمي..[١٠] إلى جانب النقد الصحافي.. أما الناقد حاتم الصكر ؛ فيرى أنَّ أهم ملمح للخطاب النقدي في العراق يتمثل في(الانفتاح المنهجي) و(إعادة الاعتبار للنص) في القراءة النقدية..[١١]، ويرى د. ثابت الآلوسي أنّ أهم سمة للخطاب النقدي في العراق هي كفه عن أن يكون دروساً في الاجتماع والتاريخ والفلسفة واللغة ، أو أن يكون هامشاً ملحقاً بالأدب ، واتجاهه نحو النص وانشغاله الدؤوب به وبمستوياته العميقة[١٢]. وترى الباحثة أنَّ النقد العراقي اليوم مساير ومتناغم روحاً وحركة وأداءً مع توجهات النقد العربيّ والعالميّ، بل هو منفتح وقابل للانفتاح على كلِّ جديد في فلسفة النقد ومناهجه وإجراءات هذه المناهج وطرائق قراءتها للنص الإبداعي ومرد هذا سعة أفق الناقد العراقي الأكاديميّ والصحفيّ

(الثقافيّ) وقدرته على تفهم موقع الخطابين الأدبي والنقدي في سيرورة المجتمعات العربية اليوم ، وهي تشهد ادوار استحالة جديدة تتقلب فيها بين ثنيي الخطاب السياسيّ والخطاب الدينيّ والخطاب الثقافيّ هذه الخطابات المنفتحة مرة ، والمأزومة والمتشددة مرات بتأثير صراع المنظومات المعرفية بين الهنا والهناك والانا والآخر.. فنرى النقد العراقي اليوم مهموماً في واحدة من احدث صيحاته بالنقد الثقافيّ والقراءات السياقية ، وقد يزاوج بين هذه والنصية.

الخطاب النقدي المعاصر رائياً:

النقد تجربة إنسانية واعية تشكل حضوراً واعياً ولافتاً للعقل الإنساني في أيِّ مجال معرفيٍّ تتصدى له بالقراءة والتأويل. وفي ظلِّ تيارات الفكر المعاصرة من حداثوية وما بعد حداثوية غادرت هذه الفعالية العقلية منطقة التذوق والاستمتاع المجرد لتقوم على رؤية واضحة ، ومنهجٍ فاعلٍ ، مشكلةً تجربةً وممارسةً ثقافيةً حضاريةً ، ومؤشرةً على درجة الوعي الإنساني .

ولو نظرنا إلى واقع خطابنا النقدي العربي اليوم لوجدنا أنه ((خطابٌ مأزومٌ بأزمةٍ فكريةٍ وأزمةٍ اجتماعيةٍ وهو خطابٌ سلبيٌّ مغتربٌ بحركة وعيٌ ذاتيٌّ يحول دون تحرر ذاته وكسر قيوده وإطلاقه بحرية أمام التحديات المصيرية التي تقف عائقاً أمام تقدمه ، والإجابة عن التساؤلات النقدية اللجوجة التي يواجهها لتفكيك وتحليل الخطاب العربي المعاصر ومعاينة ومنجزاته الفنية والاجتماعية))[١٣] .

ولو بحثنا في أسباب الأزمة المعرفية التي يعيشها الخطاب النقدي العربي – ومنه العراقي – لو جدنا أنها :

١. أسباب متعلقة بإشكاليات المجتمع العربي المعرفية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية اليوم.
٢. أسباب داخلية تكمن في بنية هذا الخطاب الشكلية والمعرفية على مستوى التنظير (وعي مفهوم النظرية النقدية وأزمات المناهج النقدية الوافدة) وعلى مستوى الإجراء والتطبيق والممارسة النقدية ، هذا فضلاً عن أزمة المصطلح النقدي وإشكاليات الترجمة يؤطر هذا كله أزمة (وعي نقدي فاعل) يفتقر إليه هذا الخطاب .

هذه الإشكاليات جمعياً أرَّقت المفكر والناقد العربي في القرن العشرين من أمثال (محمد عابد الجابري ، ونصر حامد أبو زيد ، وادوارد سعيد ، ومحمد اركون ، وحسين مروة ، وعبد السلام المسدي ، وعبد الله إبراهيم ، وعبد الله الغذامي وغيرهم الكثير). فراحوا يبحثون في الأسباب ، هل هي أزمة فكرٍ ، أم أزمة هوية ، أم أزمة وجود حضاري ؟! ومّا الحل : هل نعيد قراءة ، التراث ومحاكمته ، أم نتجاوزه ، أم نختار طريقاً بين هاذين المسلكين لنخرج من عنق الزجاجة ؟! وما

الدور الذي على المثقف العربي اليوم أن يتبناه لكي يجد حلولاً جذرية لا ترقيعية لأزمة الخطاب النقدي العربي على الصعد كافة ومنها الأدب ، بل أيُّ نوعٍ من المثقفين المتواجدين في الساحة هو الأجدر بتولي المهمة ، مثقف السلطة ، أم مثقف السجن ، أم مثقف المنفى برأي المسدي –مثلاً – [١٤] الذي يرى أنَّ مأزق الخطاب النقدي العربي (البطرياركية) التي تمارسها مؤسسات القرار ، ومؤسسات الغيب في وطننا العربي ، وتحالفها الاستراتيجي على مؤسستي الإبداع والفكر الناقد (مؤسسة الخيال)[١٥]. ويرى أنَّ الحل يكمن في منح الحرية المطلقة لهاتين المؤسستين الأخيرتين ، ومصالحة تاريخنا العربي ، وإرثنا الثقافي بـ((انتقال المشروع الثقافي العربي من الخطاب المتعدد الذي يريد أن يتوحد إلى الخطاب الواحد بالهوية والمتكاثر بالانجاز))[١٦]. ومثله د.إبراهيم الحيدري الذي يذهب في كتابه (النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة) إلى حاجتنا اليوم إلى (المثقف التنويري) النوعي ، لا المهمش ، المتحرر من أوهام الوصاية ، والتقليد والتبعية[١٧]. في قراءته للنص.... شريطة أن يكون هذا الناقد النوعي جريئاً بما يكفي لقيامه بمحاولة نقد مزدوج نقد الذات ، ونقد الآخر بطريقة ((تستهدف زعزعة الخطاب الاستبدادي التقليدي والأبوي–البطريركي– وتفكيك مضامينه وأهدافه ، ومن ثم توحيد أجزائه في نظرية نقدية خلاقة تقوم على المناهج النقدية الحديثة لإعادة بناء خطابنا النقدي ، ليكون أكثر قوة ووعياً وتماسكاً وقدرة على القيام بمسؤولياته تجاه المجتمع المتغير والثقافة السائدة))[١٨].

إذ كان كل ما تقدم استعراض لأشكال وأسباب أزمة الخطاب النقدي العربي ، وعرض لبعض الحلول عند المثقفين العرب من نقادٍ ومفكرين ، فكيف نظر الناقد العراقي إلى أزمة هذا الخطاب على الصعيد الأدبي بالذات ، وما حلوله المقترحة لهذه الأزمة ؟. وما دمنا قد أوقفنا بحثنا على مدونة الخطاب النقدي العراقي ، فسنعرض في هذا المجال للجهد النقدي للأستاذ الدكتور محمد صابر عبيد الذي له أكثر من ٧٠ بحثاً ومؤلفاً علمياً في ميدان النقد الأدبي عبر تجربة نقدية وأكاديمية تزيد على الربع قرن .

في كتابه (تجلي الخطاب النقدي من النظرية الى الممارسة)[*] يرى د. محمد صابر عبيد أن النقد فعالية تقوم على رؤية واضحة ومنهج فاعل ، وأنَّه فعالية عقلية ثقافية لها حضورها البارز والمؤثر في كل مجالات الحياة الثقافية والفكرية حتى أنه يحملها مسؤولية " بعث الأمل في الإنسان"[١٩]. إذن النقد ممارسة ثقافية وإن كانت تنطلق من النص الإبداعي في محاولة لاستكناه مضامينه ورؤاه إلاَّ أَنَّها "تنفتح على مستويات أخرى تتسع لقضايا الإنسان – ذاكرة وحلماً ومصيراً – بالمعنى الحيوي الراقي والحضاري الكوني لمفهوم القضية "[٢٠]. انطلاقاً من أنَّ العمل الإبداعي وبخاصة الأدبي منه إنما هو نتاجٌ للتلاقح الخصب بين التجربة الذاتية الفردية للمبدع ، والتجربة الإنسانية الأعم والأشمل بأبعادها الجمالية كافة... وبهذا تكون التجربة النقدية " تجربة في الحياة

والثقافة والفكر والمعرفة والحضارة والكون والطبيعة والأشياء كلها ، تسمح للتفاعل النقدي أن يتدخل في أعماق النصوص للكشف عن جمالياتها ورؤاها وقيمتها وطاقات المعنى فيها ، على النحو الذي يعمق في الحياة روحها النبيل ، ويقارب الثقافة بمخزونها المعرفي الذي يسهم في رقي الإنسان وتحضره ، ويدعم الفكرة التقدمية والطليعية والتنويرية في الحضارة ، ويحقق وحدة الكون والطبيعة على الشكل الذي تجعل الحرية سبباً في التلاقي لا الافتراق "[٢١] .

ولا يكتفي د.محمد صابر عبيد بالتنظير لهذا (الحلم النوعي) – كما يسميه– ويأمله لمهمة الخطاب النقدي الذي يريد له أن يكون (إبداعياً) كذلك وموازياً للخطاب الإبداعي (الأدبي)[٢٢]. بل يحدد خطوات عمل على المستوى الإجرائي للفعالية النقدية لكي تصل إلى مستوى القضايا الإنسانية الكبرى وتؤثر فيها نقداً ، وتقويماً ، ورفداً برؤى جديدة وهو يطلب للنص النقدي لكي يصل إلى مرحلة (الإقناع) – كما هو حال النص الأدبي – أن يكون قادراً على " تحقيق الدهشة الكتابية بما ينطوي عليه من أسلوبية كتابية خاصة داخل سياقها"[٢٣] بطريقة تتمكن معها هذه اللغة من "أن تخلق جديداً وهي تكتب بحسها النقدي الخلاق "[٢٤]. أي أنه يطلب للناقد أيضاً أسلوباً مائزاً عمن سواه من النقاد . وعلى هذا الأساس يرى أن الخطاب النقدي النوعي الفاعل والمؤثر رهين موردين أساسيين: "الأول (المنهج) وهو يقدم شبكة من الآليات المعدَّة للعمل على وفق فلسفة المنهج ورؤيته ومنطقه ومقولته ، والثاني (الشخصية الناقدة) وهي تتمظهر من شبكة من المكونات الذاتية والموضوعية والمعرفية والثقافية "[٢٥]. وهو يشدد في هذا المجال على دور الشخصية النقدية المائزة لهذا الناقد دون سواه في (المنهج النقدي) فبغيابها يكون النص الإبداعي " رهيناً للتطبيق الآلي (الأعمى) للمنهج النقدي وهو تطبيق سيتساوى في مخرجاته الجهد النقدي للنقاد على اختلاف مشاربهم وألوانهم ومرجعياتهم "[٢٦] .

ويذكرنا د. محمد صابر عبيد في هذا المجال بضرورة تمتع الشخصية النقدية بـ(ذائقة نقدية) تخصها وحدها ، وتميزها عن غيرها من الذوات الأخرى لتعينها على حسن اختيار النص الإبداعي. هذا فضلاً عنى تأكيده على طرفي المعادلة النقدية المتمثلين بـ(أثبات النظرية) و(حياة الإجراء النقدي) وتوافر (الرؤية النقدية) لدى الناقد لتضبط طرفي هذه المعادلة[٢٧] .

ويرى د.محمد صابر عبيد أن سبب افتقارنا نحن العرب إلى نظرية نقدية عربية خالصة حتى بتنا مستقبلين وملخصين وشارحين للنظريات الغربية الوافدة هو " انعدام حواضن فلسفية عربية صحيحة ومتصالحة ومتفاهمة مع السياقات والنماذج "[٢٨] .

والآن لو أردنا أن نبحث عن مصاديق لرؤية د.محمد صابر عبيد لمسارات ورؤى وتوجيهات العملية النقدية ، كما حددها على مستوى الإجراء في ما قدم من نصوص نقدية ، واخترنا واحدة من

مدوناته النقدية وهي كتابه (الرواية الرائية – لعبة القص : سرد الحياة ، وسرد الحكاية)[**] لوقفنا عند الأتي :

يطرح هذا الكتاب مفهوم واصطلاح (الرؤية الرائية) في إطار ثلاثية نقدية مهمة ، اشتملت في ما سبق على إصدار كتاب نقدي حمل عنوان (القصيدة الرائية) عن تجربة الشاعر رعد فاضل ، وكتاب (القصة الرائية) من محمد صابر عبيد اقتراح مصطلح نقدي جديد يحيل على " خصوصية النص الأدبي الرائي الذي يحقق الرؤية والرؤيا معاً "[٢٩] أي إنّه يبحث في المدونة الإبداعية عن انشغالها واشتغالها على [رؤيا] خاصة بها للإنسان والوجود من حوله ، وهي [رؤيا مستقبلية] يريد لها أن تكون منحازة ومتجهة ومتكهنة بـ(المستقبل) و(الآتي) من المصائر والأحداث انطلاقاً من (الماضي) و(الآن) . وهو لا يكتفي باقتراح هذا (المفهوم) و(المصطلح) ، بل يطلب إحالته على نص الروائي (عبد الرحمن مجيد الربيعي) الموسوم بـ(نحيب الرافدين)[***] " إدراك القيمة النظرية والإجرائية لمصطلح (الرواية الرائية) بما يضع هذا المصطلح الجديد موضع التنفيذ الإجرائي ومن ثم التداولي "[٣٠].

ويحيله اقتراح مصطلح (الرواية الرائية) هذا على اقتراح المصطلح جديد يضاف إلى منظومة مصطلحات (تودروف) في (الرؤية السردية) المتمثلة بـ(الرؤية من الداخل ، والرؤية من الخارج) يصطلح عليه بـ(الرؤية إلى الخارج) ، ويريد به " رؤية عابرة تغادر محيط النص السردي نحو الخارج أي أنها تتحول من السردي إلى الثقافي ، ومعه المكتوب إلى ما وراء المكتوب ، وتشتغل على آلية الكشف والاستشراف والتطلع والحدس والتوقع في ربط مقولات النص السردي بالخارج الثقافي والاجتهاد في الإجابة عن أسئلته "[٣١].

وبهذا كله يكون د.محمد صابر عبيد قد التزم على المستوى الإجرائي بتحقيق الإطار النظري الذي تصوره للخطاب النقدي الذي عرضنا لأهم مفاصله في الصفحات السابقة ، وحقق المطلوب من الفعالية النقدية عندما طلب انطلاقها من النص الإبداعي استكناهاً لمضامينه ورؤاه ، ومن ثم مواصلة المسير إلى الكشف عن الحاضنة الوجودية والمعرفية للنص الإبداعي بغية الإسهام في أثراء رؤى وطاقات الحياة المعرفية والفكرية والجمالية ... وما اقتراحه للمصطلحات النقدية اللازمة للدلالة على مفهوم (رؤيا) النص الإبداعي لديه إلاّ دليل على أنه نموذج للناقد النوعي الذي تثري ثقافيه ومحصلته المعرفية مدونته النقدية بالجديد من المفاهيم والمصطلحات .

أما المنهج النقدي الذي اعتمده د.محمد صابر عبيد في قراءته لرواية (نحيب الرافدين) ، فقد صرح في مقدمة دراسته النقدية المشار إليها آنفاً أنه منهج نقدي حر[٣٢]. لأنه يرى أن (القياسات النظرية التقليدية) في قراءة النصوص السردية " قد أضحت اليوم قليلة الفائدة بحكم اعتمادها على آليات واحدة متكررة لا تفرز تباينات كبيرة بين مجموعة دراسات مختلفة ، ولا تقدم خيارات نقدية

واسعة... فضلاً عن أنها لا تظهر كثيراً شخصية الناقد الواضحة بقدر ما تعكس شخصية النظرية على حسابها وبعيداً عنها "[٣٣] . وهذا التوجه من الناقد صوب المنهج النقدي الحر ورأيه الصريح في اغلب المناهج السردية الراهنة تحقيق لمطلب أكدَّهُ الكثير من المفكرين والنقاد العرب تحقيقاً لخصوصية الخطاب النقدي العربي و حلاً لأزماته ، وهو ضرورة تحلي الناقد (النوعي) (التنويري) المطلوب للمرحلة الفكرية الراهنة من عمر وجودنا الحضاري بالشجاعة الكافية لإعادة النظر في المناهج النقدية ، وتبني ما يصلح منها ومصادرة من لا يضيف جديداً على المستوى الإجرائي عند مقاربة النصوص الإبداعية ؛ لأنه يكتفي بحصرهاً في خانة الأحكام النقدية الجاهزة والمكرورة ، مكمماً صوت الشخصية الناقدة المائزة – التي يطلب د. محمد صابر عبيد تحلي الناقد النوعي بها – ورؤيتها الخاصة بهذه النصوص . وبهذا يمكن أن نعدَّ د. محمد صابر عبيد ناقداً نوعياً ، وخطابه النقدي خطاباً رائياً ، قدَّم تصوراً لما يجب أن يكون عليه الخطاب النقدي العربي ومنه العراقي لكي يكون نوعياً وتنويرياً ، وجاءت مدونته النقدية مصداقاً لمّا طرح من رؤى وأفكار باتجاه تشكيل الخطاب النقدي العربي الرائي.

الخاتمة:

قد ينطبق كل ما تقدم بدرجة أو بأخرى على واقع حال الخطاب النقدي العراقي اليوم . هنا لنا أن نسأل كيف يمكن أن نطلب من هذا الانفتاح اللامحدود على تجارب الآخر النقدية العربية والعالمية أن يسهم في تشكيل ملامح مدرسة عراقية في النقد ، ربما يرى البعض هذا السؤال عبثياً في هذه اللحظة الراهنة تحديداً من عمر الخطاب النقدي العراقي.... والحقيقةُ أنَّ الباحثة ترى أنَّ على هذا الخطاب إن أراد أن يكون عراقي الهوى والهوية أن يكف عن أن يكون في خانة الجواب ، بأن ينتقل منها إلى خانة السؤال . بمعنى أن يكف عن البحث الدائب عن منهج نقدي مناسب لقراءة هذا النص الأدبي أو ذلك ، وأن يعاود قراءة هذا النص من الداخل ، بأن يسأله عن جدواه ومراميه وآفاقه المستقبلية ودوره المفترض في بناء الإنسان في هذا الوطن. بل إنَّ عليه أن يمتد إلى أكثر من ذلك ليعيد قراءة ونقد منظومتنا الفكرية والثقافية ويحاكم خطابها المعرفي هل تحمل أعباء المهمة التنويرية بروح مسؤولة؟!. لن يكون مهما تمام الأهمية أن يستورد منهج قراءة من هنا أو إجراء تحليل من هناك .

الهوامش والمصادر :

(١)ينظر: نقد الشعر العربي الحديث في العراق من ١٩٢٠–١٩٥٨ ، عباس توفيق ، دار الرسالة للطباعة ، ١٩٧٨ ، ص١٢ وما بعدها ، والنقد الأدبي الحديث في العراق ، د. احمد مطلوب ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٨ ، ص١٨ وما بعدها . والفكر النقدي في أدب الزهاوي والرصافي ، أمل رشيد العبيدي ، رسالة ماجستير ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ .

(٢)لمزيد من التفصيل في اتجاهات النقد العربي في تلك الفترة ومنه العراقي ينظر: التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، د. بدوي طبانة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

(٣)ينظر: نقد الشعر في العراق بين التأثرية والمنهجية ، د. عناد غزوان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط١ ، بغداد ، ١٩٩٩ ، ص٧ وما بعدها.

(٤)للمزيد عن دور الصحافة الأدبية وأثرها في الخطاب الإبداعي أولاً والنقدي ثانياً ينظر: الفنون الأدبية ونقدها في صحافة العراق للمدة من ١٩٦٨ – ١٩٨٠ (دراسة نقدية) ، محمد حسين علوان ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٤ .

(٥)ينظر: أسئلة النقد – جدل نظري حول إشكالية المنهج....، جمال جاسم أمين ، الموسوعة الثقافية ، العدد ١٢ ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠٤ ، ص٥ وما بعدها.

(٦)جدلية الحوار في الثقافة والنقد ، د. سامي سويدان ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥ ، ص١٧ وما بعدها.

(٧)ينظر: تجلي الخطاب النقدي من النظرية إلى الممارسة ، د. محمد صابر عبيد ، منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف ، ط١ ، ٢٠١٣ ، ص٩٧.

(٨)المصدر نفسه ، ص٩٧

(٩) ينظر: الحركة النقدية في مرحلة التغيرات الثقافية (ندوة) ، الأقلام ، السنة ٢٤ ، العدد ١١–١٢ ، ١٩٨٩ ، ص١٩١.

(١٠) المصدر نفسه ،ص ١٩٢.

(١١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(١٣) النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة ، د.إبراهيم الحيدري ، دار الساقي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٢، ص٤٨٣–٤٨٤ .

(١٤) ينظر : نحو وعي ثقافي جديد ، د.عبد السلام المسدي ، كتاب مجلة دبي الثقافية ، ط١ ، ٢٠١١ ، ص٤٥ .

(١٥) ينظر : روافد النهضة والتنوير – مرويات فكرية ، سعد محمد رحيم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ٢٠١٥ ، ص١٨٣.

(١٦) نحو وعي ثقافي جديد ، ص٩٥ .

(١٧) ينظر : النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة ، ص٥٠ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص٤٩٤ .

(*) صدر الكتاب عن دار منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف بطبعته الأول عام ٢٠١٣ .

(١٩) تجلي الخطاب النقدي من النظرية إلى الممارسة ، ص٩٧ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص٩٧ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص٩٨.

(٢٢) ينظر : المصدر نفسه ، ص١١٥.

(٢٣) المصدر نفسه ، ص١١٦ .

(٢٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢٥) المصدر نفسه ، ص١١٧ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص١١٨ .

(٢٧) ينظر : المصدر نفسه ، ص١٢٢ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص١٢٥ .

(**) صدر كتاب (الرواية الرائية –لعبة القص : سرد الحياة ، وسرد الحكاية –) عن دار نقوش عربية ، تونس ، ط١ ، ٢٠١٣ .

(٢٩) صحفية الغلاف الأخيرة من كتاب (الرواية الرائية).

(***) صدرت هذه الرواية السير ذاتية في تونس ، ٢٠١١ .

(٣٠)الرواية الرائية ، ص١١ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص١٤ .

(٣٢) ينظر : المصدر نفسه ، ص٧.

(٣٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

Margins and resources:

(1) see Criticism of modern Arabic literature in Iraq from 1920-1958, Abbas Tawfeeq, Dar Alrisala Press, 1978, p.12; Modern literary criticism in Iraq, Dr. Ahmed Matloob, Arabic Research Center, 1968, p.18; Critical thought in Alzahawi and Alrusafi literature, Amal Rasheed Alubaidi, MA thesis, College of Education for Women, University of Baghdad, 2005.
(2) For more details, see Contemporary trends in literary criticism, Dr. Bidwi Tabbana, The Egyptian Anglo Library, 1st ed. Cairo, 1963.
(3) See Poetry criticism in Iraq between impressionism and methodology, Dr. Inad Ghazwan, 1st ed. Baghdad, 1999, p.7.
(4) See Literary arts and their criticism in Iraq's press from 1968 to 1980, Mohammed Hussein Alwan, PhD dissertation, College of Arts, Mustansiriya University, 2004.
(5) See Criticism enquiries – theoretical negotiation about methodology problem, Jamal Jasim Ameen, The Cultural Encyclopedia, issue 12, Baghdad, 1st ed. 2004, p.5.
(6) Discource argument in culture and criticism, Dr. Sami Swaidan, Dar Al Adab, Beirut, 1st ed. 1995, p.17.
(7) See Critical discourse manifestation from theory to practice, Dr. Mohammed Sabir Ubaid, Dhifaf publications, 1st ed. 2013, p.97.
(8) Ibid, p. 97.
(9) See Critical movement in the time of cultural changes (session), Alaqlam, year 24, issue 11-12, 1989, p.191.
(10) Ibid, p.192.
(11) Ibid.
(12) Ibid.
(13) Criticism between modernism and postmodernism, Dr. Ibrahim Alhaidari, Dar AL Saqi, Beirut, 1st ed. 2012, p.483-484.
(14) See Towards new cultural awareness, Abdulsalam Almasdi, Dubai cultural magazine, 1st ed. 2011, p.45.
(15) See Rawafid Alnahdha wa Altanweer – marwiat fikria, Sa'ad Mohammed Raheem, Baghdad, 1st ed., 2015, p.183.
(16) Towards new cultural awareness, p.95.
(17) See Criticism between modernism and postmodernism, p.50.
(18) Ibid, p.494.
(19) Dar Dhifaf, 1st ed. 2013.
(20) Critical discourse manifestation from theory to practice, p.97.
(21) Ibid. p.97.
(22) Ibid, p.98.
(23) Ibid, p.115.
(24) Ibid, p.116.

(25) Ibid.
(26) Ibid, p.117.
(27) Ibid, p.118.
(28) Ibid, p.122.
(29) Ibid, p.125.
(30) Insightful novel, Dar Nuqoosh Arabia, Tunisia, 1st ed. 2013.
(31) Back cover of Insightful novel.
(32) Published in Tunisia, 2011.
(33) Insightful novel, p. 11.
(34) Ibid, p.14.
(35) Ibid, p.7.
(36) Ibid.